



تترجم المراثي أصدق
المشاعر، والرثاء في الشعر
والأدب العربي من أكثر صنوف
الأدب تأثيراً وخلوداً، وتلك
الكلمات التي تقال في لحظات
من الحزن والتأثر والانفعال
تكون أكثر جمالا وبقاء، وما زال
الأدب والذاكرة العربية حافلة
بقصائد الرثاء والنصوص
الخالدة منها.



راشد المبارك يرثي نفسه..

الحقائق وصروف الأيام.. كيف لا، وشجرة عمره
تذوي، وصحته تتهاوى، وضعفه أبقاه حبيس منزله
خلال العامين الأخيرين من حياته.
ماذا كان عليّ أن أقول في تلك الساعة، سوى
إرسال الأمنيات بحياة حافلة بالمزيد من العطاء
والتفاؤل الجميل.. ولولا شعوري بكارثة الانكسار
أمامه ليكبت بين يديه.

وعندما حان وداعه، ناولني بضع أوراق مضمومة،
وحين حاولت قراءتها، أشاح بيده.. أن أتركها لوقت
آخر. فهمت ما يعني.. وأردف: إنها
وديعة لديك.

عندما عدت لمنزلي، لم أقاوم
الصبر، فرميت بصري عليها فإذا هي
«رسالة قبل الرحيل». لم أقو حينها على
الصمود في قراءة مراثية راشد لنفسه..
وأودعتها مكاناً بعيداً عن متناول



د. عبد الله القفاري - السعودية الأيدي.

وفي ليلة - ليست ككل ليلة - جمعتني بالصديق
الراحل الدكتور راشد المبارك في سنواته الأخيرة..
ليلة شتوية باردة، أدفأناها بالرحيل إلى بعض
ملامح الماضي وشخصياته وحضوره.. يحاول تارة
أن يقتنص شاردة من أبيات الشعر الأثرية إلى
نفسه.. وتارة أحرص فيه بعض مرح طفولي هجره
طويلاً..

وفي لحظة صمت، انقطع كل هذا، فقد طغت
على محياه ملامح شرود واستغراق.. ثم عاد ليقول
لي: أشعر أن أجلي قريب، وأن أيامي
معدودة، لقد أصبحت اليوم على عتبة
الانتظار.. لقد أصبح الموت هاجسي!!
ترقرقت دمعة حرى من عينيه،
ولبت مرتبكاً كيف لي أن أبدد هذا
الشعور، وأنا أدرك أن راشد ليس من
أولئك الذين يتأثرون بكلام
مرسل لا منزلة له في سلم

بعد رحيله، عدت إليها، إلا أن قراءتي لها صارت
نزعاً في فؤاد مكلوم، وأنا أستعيد تلك الصور
والمواقف.. لقد كانت استغراقاً فريداً صدقه حدسه
قبل الرحيل.

أضع بين يدي القارئ «رسالة قبل الرحيل»، فهي
لن تكون سوى مرثية أخرى من عظيم يرثي نفسه
قبل الرحيل. إن كل رثاء بعدها يتضاءل أمام هذا
الفيض الطافي في تصوير بديع يطوف فضاءات تلك
الشخصية النادرة.. بقدر ما يثير من لواعج الفقد
وأحزانه.

كتب راشد وصيته قبل رحيله، وفيها أيضاً صاغ
رغبته باستمرار ندوته الأحدية، وأشياء أخرى،
وبتفاصيل يدرك من اطلع عليها أنه كان يهيئ كل
شيء ليوم لا ريب فيه.. وكأنه لا يريد أن يشق على
من بعده، فرسم إطاراً يضمن بقاء هذا الوهج
الثقافي الجميل.

ورق كأنسام الربيع المورد
رباط سماوي النقا والتجدد
وداع محب ما احتفى بالتجدد
جواداً ولم يبخل بما كان في باليد
ونفحة ريحان بظل ممدد
وفي مسمعي لحناً ندي التردد
وخيمة أضياف وأهل المقصد
من الخير لا يلقي النداء بالتردد
وكان رؤوفاً بالبعيد المهدد
يؤرقه بؤس الطريد المشرّد
وتشقيه آلام الأسير المقيّد
تلقاها في بشر لقاء تودد
فما درت اليسرى باتفاق راشد
ولكنه معطى لما جال في اليد
بساط الهنا عني وفارق مسعدي
وفارقتي سعدي وجفت موارد

نعمن زماننا بالهوى قد صفا الهوى
تعانقت الأرواح منا.. وضمها
وقد حان من وقتي الرحيل فودعي
وقولي: ألوفاً كان يفدي بما غلا
وجدتُكَ في قلبي رفيفَ خميلةٍ
وقد كنت في عيني الضياء أرى به
كما أنت في دنياي قلعةً آمنٍ
لقد كان سباقاً إلى كل خلةٍ
وكان محباً للقريب وإن جفا
يبيت إذا ما الناس دثرها الكرى
ويضنيه أن يبقى على الأرض جائع
إذا جاءه الساعي لتفريج كربه
وإن أنفقت يمناء إنفاق موسرٍ
وما كان ذا مال كثير ولا غنى
لقد أظلمت دنياي بعدك وانطوى
يقيناً لقد غاب الضياء عن محاجري

رسالة قبل الرحيل



د. راشد المبارك



سأبكيه عمري ما حييت لما مضى
يعذبني يومي وأشقى بأمسه
فلو راحل يفتدي لكنت افتديته
أناجي القبور الغافيات ومهجتي
أناجيك في لون الغدير إذا صفا
وأصفي إلى همس النسيم كأنني
وأستطق الورد الشذي وقد حكى
فأرجع لا قلب يقر قراره
وإن طاب لي صفو الحياة ولينها
أغالب أحزاني العطاش إلى البكا
سأبكيك ما أحيأ بحرقه واله
وإن كان لا تكل كئلكي في الوري
أناجيك بالود الذي كان بيننا
وألصق خدي بالتراب لعلني
محبوك غرقى في الدموع وحزنهم
إذا ما تنادوا للقا عصفت بهم
وإن عمقت بالمنتدى الرحب ندوة
تعبت وما في الكأس فضل لشارب
عليك من الله الرضا وسلامه
ومد عليك الله ظل اصطفائه

وما زان وقتي من خلال ومحتد
ويسلمني يومي إلى الحزن في غدي
بنفسي وما أغلي وما ملكت يدي
على جدث قد ضم أنسي وسؤددي
وألثاق في إشراق قنديل مسجد
لدي وشوشات الحب أصفي لمنشدي
خلالك في نشر العبير المبدد
ولا الصبر في ليل العذاب بمسعدي
واغفأة في أعين لم تسهد
فيغلبني حزني وينأى تجلدي
ولوعة ذي تكل وتكلي بواحد
ولا حرقتي مرت بجفن مسهد
وبالأنق الأسمى وبالخلق الندي
أشتم شذا إنشاد بيت مفرد
طويل كما أحزانها أم واحد
لواعج تستدعي الهموم وتبتدي
فما أوجع الذكرى على قلب منندي
وما في الندى السمع صوت لمنشدي
وحفت بك البشري تروح وتفتدي
بما قد وقفت النفس موقف منجد

(*) جريدة الرياض، الاثنين ١١ جمادى الأولى ١٤٣٦ هـ، ٢٠ مارس ٢٠١٥ م.